

PHILOSOPHICAL QUESTION IN THE ARAB-ISLAMIC CIVILIZATION

السؤال الفلسفي في الحضارة العربية الإسلامية

Mohammad Nour ALNEMR¹

Abstract

This research deals with the philosophical question in the Arab-Islamic civilization, where it is an another creative form for that civilization, it aims to reach determining the nature of this question, and to distinguish it from other philosophical questions. And when this philosophical question was determining the general ontological perception of that civilization, we will define diverse appointments to it in theology, philosophy, and mysticism. If "God" is the main concept on which is leaning against it the whole history of the Arab-Islamic thought, it will determine all other concepts on which build the Islamic perspective, which is achieved through it- the Arab-Islamic civilization- an important historical presence. From here, we must determine its nature, and shed light historically on the diversity of its forms. And thus, knowing philosophical intellectuals which were created by thinkers in their different intellectual creations. This research discusses two main points: the first relates to the importance of the philosophical question in the Arab-Islamic civilization as it is the central question, emerged from it all moral, social, and political values. While the second historically relates to the development of this question, and intellectually to the diversity of its forms. In both cases, the philosophical question, in terms of intellectual distinctive feature of the Arab-Islamic civilization, is what our research will be based upon.

Key words: Critical Reading, Ontological Perception, Gustatory Experience, Existence, Overtaking, Creativity, Concept, Differentiation.

الملخص

يعالج هذا البحث السؤال الفلسفي في الحضارة العربية الإسلامية، من حيث هو شكلاً إبداعياً آخر لتلك الحضارة، فهو يستهدف الوصول إلى تحديد طبيعة هذا السؤال وتميزه عن غيره من الأسئلة الفلسفية الأخرى، ولما كان هذا السؤال الفلسفي يحدد التصور الأنطولوجي العام لتلك الحضارة، فإننا سوف نحدد التعينات المتنوعة له، في علم الكلام، والفلسفة، والتصوف. وإذا كان "الله" المفهوم الرئيس الذي يتكئ عليه كل تاريخ الفكر العربي الإسلامي، فإنه سوف يحدد كل المفاهيم الأخرى التي بنى عليها التصور الإسلامي، الذي حققت من خلاله - أي الحضارة العربية الإسلامية - حضوراً تاريخياً مهماً، ومن هنا وجب علينا تحديد طبيعته، ومعرفة تنوع أشكال تجليه تاريخياً، وبالتالي التعرف على المقولات الفلسفية التي ابتكرها المفكرين في إبداعاتهم الفكرية المختلفة. أما مجال البحث فيتعلق بنقطتين أساسيتين: تتعلق الأولى بأهمية السؤال الفلسفي في الحضارة العربية الإسلامية بوصفه سؤالاً مركزياً فيها، انبثقت منه كل القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، في حين تتعلق الثانية في تطور هذا السؤال تاريخياً، وتنوع أشكال تجليه فكرياً. وفي الحالتين سيكون السؤال الفلسفي - من حيث سمة فكرية مميزة للحضارة العربية الإسلامية - هي ما سيرتكز عليها بحثنا. لكلمات المفتاحية: قراءة نقدية، الذات، الوجود، التجاوز، إبداع، المفهوم. تمايز.

¹ باحث من سوريا، Suriyeli Arařtırmacı

المقدمة:

شكلت ولادة الفلسفة حدثاً استثنائياً للعقل الإنساني برمته، إذ استطاع العقل لأول مرة في تاريخه أن يعي ذاته، ويعي الوجود من خلال وعيه لذاته. لذلك شكل الانشغال بمعرفة الوجود حجر الأساس في التفكير الفلسفي، حيث مثلت ولادة العقل بالسؤال الفلسفي عن الوجود نقلة نوعية في تاريخ الوعي الإنساني، فلم يعد العقل بعد الفلسفة كما كان قبلها.

لا مراء أن لكل حضارة تصورها الفلسفي الخاص للطبيعة والله والإنسان، بحيث يختلف ترتيب هذه المفاهيم باختلاف تصورها الانطولوجي العام، فمثلاً أقامت المرحلة اليونانية مبدأها الفلسفي على أن الطبيعة هي المفهوم الرئيس الذي تنبثق منه المفاهيم الأخرى، فها هو طاليس الفيلسوف اليوناني الأول يعيد أصل الوجود إلى الطبيعة "الماء"، وهرقليط يعيده إلى النار، وهو ما جعل الباحثين يطلقون اسم "الفلسفة الطبيعية" على المرحلة السابقة على سقراط، وهذا الأمر – أي تفسير الوجود – ينسحب أيضاً على الفلاسفة اللاحقين عليه أمثال أفلاطون وأرسطو، هؤلاء الذين كان هاجسهم الفلسفي الأساس هو تفسير الوجود، وهو ما جعله سؤال الفلسفة الأيدي، ما الوجود؟.

من هنا يختلف السؤال الفلسفي باختلاف التصور الانطولوجي لتلك المفاهيم بين هذه الحضارة أو تلك، وهو ما يفسر لنا سر تباين المنظومة القيمية والاجتماعية وحتى السياسية بين أمة وأخرى.

تساءل هل هناك سؤال فلسفي إسلامي؟ ثم ما خصوصية هذا السؤال في الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى المتعاقبة على الفكر البشري؟

أولاً – لحظة بدء لطريق شائك:

قدم الإسلام – من حيث هو دين سماوي – تصوراً كلياً للوجود، كان فيه "الله" المبدأ التي تستند إليه كل المفاهيم الأخرى العالم والإنسان، وهو أيضاً – أي ذاك المبدأ – الذي تنبثق منه كل المنظومة القيمية والتربوية والاجتماعية والسياسية، لذلك اجتهد كل المفكرين في تباين تلك الحقيقة وتوضيحها والدفاع عنها عقلياً في مناحي عدة من الثقافة العربية الإسلامية. (محمد أبو ريان، 1990، ص16)

إذاً يتكى كل تاريخ الفكر العربي الإسلامي على مفهوم "الله" بوصفه المبدأ الناظم لكل المفاهيم الأخرى، ومن هنا لا تبدو فقط خصوصية ذلك الفكر في أولوية هذا المفهوم على غيره التي تأتي بالترتيب الله ثم العالم ثم الإنسان، إنما أيضاً في تباين النظر بين القطاعات المختلفة في الثقافة العربية الإسلامية لذلك المفهوم، من علم كلام وتصوف وفلسفة، وهو ما وُجد اختلاف الأدوات المعرفية أو المناهج المستخدمة في بحثها عن المفهوم ذاته.

يمكن تتبع مراحل السؤال الفلسفي في حضارتنا بدءاً من مدرسة أهل الرأي في الحديث التي جعلت العقل معياراً أساسياً لها في الحكم على صدقية أي حديث (ما عدا المتواتر منه)، حتى علم الكلام من حيث هو بداية تأسيسية للسؤال الفلسفي، لأنه لعب دوراً كبيراً في بلورة ذلك السؤال وتطوره، ولأنه – أي علم الكلام – جعل العقل منهجاً له في معرفة المفهوم الرئيس "الله" والدفاع عن هذا المفهوم اتجاه الخصوم بنفس المنهج، وهو ما أنتج بالخصلة موضوعات ذات طبيعة فلسفية، سواء أكان الموضوع متعلقاً بالمفهوم الرئيس "الله" مثل: ذات الله، صفات الله، كلام الله، أو كان مرتبطاً بالإنسان، كمفهوم الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب، وما لها من انعكاسات في حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله وتصرفاته، كل هذه القضايا حاض فيها المتكلمون حواراً نقدياً قل نظيره في الثقافات الأخرى التي عاصرتها أو التي جاءت بعدها بكثير، وأوجدوا حالة من الحرية في التعبير عن الأفكار والآراء – كان مركزها المساجد ومجالس السلطان – حرماً منها في وقتنا الراهن.

لا تبدو أهمية علم الكلام في كونه نشأ عن علاقة التأثير والتأثر مع ما يحيط به من صراعات سياسية واجتماعية فحسب، إنما أيضاً تأكيداً على البحث في الذات في مقابل الوجود، هذه الذات القادرة على معرفة الوجود. ولما كان علم الكلام قد شكل إرهاباً أولية للفلسفة العربية الإسلامية، فإن الأخيرة بدورها شهدت صياغة أول نظرية فلسفية جديدة في الحضارة العربية الإسلامية، آية ذلك هو التحول من مشكلات عملية إلى قضايا فلسفية نظرية أو التحول من الذات إلى الوجود، بدءاً من الكندي الذي أبدع أول قاموس فلسفي في صياغة المفاهيم الفلسفية، وانتهاء بالفارابي وابن سينا وابن رشد الذين تجلّى هاجسهم الفلسفي الرئيس في تقديم نظرية انطولوجية خاصة بالحضارة العربية الإسلامية، تختلف عن كل من سبقها من النظريات الفلسفية اليونانية حول الوجود، على الرغم من أن المشكلة الفلسفية واحدة ألا وهي الوجود.

على الرغم من تأثر الفلسفة العربية الإسلامية بالإرث الفلسفي القديم وخاصة الفكر اليوناني وأفلاطون وأرسطو على وجه التحديد، فإن ذلك لا يمنعها من تجاوز، بعد استلهاهم تراث تلك الحضارات وتمثله، وتجلى ذلك التجاوز في التوضع الجديد للسؤال الفلسفي الأبدى ما الوجود؟ والذي اتخذ معه - أي ذلك التوضع - شكلاً جديداً من الأنطولوجيا، تجلست عند الفارابي بمفاهيم عدة "واجب الوجود"، و"ممكن الوجود"، و"العقل الفعال"، وهي نفسها - أي المفاهيم - قد اتخذت عند ابن سينا منظوراً ميتافيزيقياً جديداً أطلق عليها الباحثون اسم "الحكمة المشرقية"، من حيث أن الأخيرة هي تجاوز فعلي للفلسفة الأرسطية اليونانية، وهو ما ينطبق على ابن رشد في قراءته لتلك الفلسفة، حين استطاع هذا الفيلسوف أن يمضي بأفكار أرسطو قدماً، من خلال تأسيس الميتافيزيقا على العلم، وهي ما جعلته فيلسوفاً عقلياً، تركت أفكاره أثراً كبيراً في الحضارة العربية الإسلامية، وحلفت أثراً فلسفياً كبيراً في الفكر الأوربي في تلك المرحلة، عرف باسم "الرشدية اللاتينية".

ثانياً - منظور مختلف:

لا يكاد يجبو نجم السؤال الفلسفي في الحضارة العربية مع ابن خلدون، حتى يعود من جديد هذه المرة بإهاب التصوف، من هنا لا تأتي أهمية الأخير - التصوف - من أنه آخر مرحلة في التفكير العربي الإسلامي وأرقاها فحسب، إنما تأتي أهميته أيضاً من ذلك الحوار النقدي الذي أجراه الفكر الصوفي مع علم الكلام والفلسفة، ليس لأنهما علمان لا يوصلان إلى اليقين لاعتمادهما على الآليات المعرفية العقلية القاصرة في طريقة بحثهما عن الذات الإلهية، بل لوجود تلك القسمة الثنائية بين الذات والموضوع، الذات عند علم الكلام، والوجود في الفلسفة.

والتصوف من حيث هو تجربة ذوقية إلهامية خاصة، أو من حيث هو سلوك إنساني معرّف، يقوم على أسس نظرية وممارسات عملية تتطلب المقاساة والمجاهدة والتكليف حتى يصل المرید إلى تلك الحقيقة المنشودة ألا وهي الذات الإلهية، لذلك جاهد المتصوف جهاداً شقيقاً ضد الخسوس وما فيه معرفة من معرفة كاذبة، أو متعة زائفة لا توصل إلى يقين، ليرتقي إلى المعقول لتحقيق الوحدة بين الذات والوجود. وقد لخص "القشيري" تلك المجاهدة في رسالته بقوله: التواحد يوجب استيعاب العبد. والوجد استغراق العبد. والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق بالبحر. وترتيب هذا الأمر: قصد ثم ورود ثم شهود ثم جمود ثم جمود. وبمقدار الوجود يحصل الجمود" (أبو القاسم عبد الكريم بن هزوان القشيري، 2000، ص137)، الذي ينتهي به إلى ذرورة الوجود من حيث هو خاتمة المعراج الصوفي، ولا يكون هذا الحال بالاعتماد على الصوفي وحده، بل هي مواهب أو ضرب من الرحمة يتولى بها الله عباده الممكنين في مقاماتهم المترقين عن أحوالهم، (يوسف سلامة، 2011، ص412).

ولطالما تمايز التصوف عن غيره من أشكال الثقافة العربية الإسلامية من علم كلام وفلسفة في الطريقة والآليات المعرفية في البحث عن الحقيقة، فإن هذا التمايز خلق مفاهيم جديدة ورائعة في المعراج الصوفي المتجه نحو الحق والحقيقة، من مثل: الحال والمقام واليسط والقبض والأنس والتواحد والوجد والوجود، وهذه المفاهيم شكلت ميسماً أساسياً للتصوف الإسلامي الذي ترك أثره الواضح في الحضارة العربية الإسلامية خصوصاً، والفكر الإنساني بصورة عامة.

ومن هنا يمكن القول: إن هناك سؤالاً فلسفياً أصيلاً في الحضارة العربية الإسلامية تمثل بالبحث عن "الله" بوصفه الينبوع الذي تصدر عنه كل التصورات الأنطولوجية والقيمية والاجتماعية وغيرها، على الرغم من أنه فكراً: تعدد أو تنوع في مصادر طرحه بين علم الكلام والفلسفة والتصوف، وتاريخاً: لم ينجز مع مفكر واحد ولا في عصر معين، ذلك لأن ماهية السؤال الفلسفي غير ناجزة، بل هي ذات طبيعة تاريخية متطورة غير مكتملة، وهذا ما جعله - أي السؤال الفلسفي - ذا سمة معمارية يتطور مع المفكرين المتلاحقين الذين أضافوا إليه نظريات ومفاهيم ومصطلحات وتصورات تغنيه وثبتت حضوره عبر التاريخ.

الخاتمة:

لم يشهد التاريخ أن تعرضت أمة أو حضارة من الظلم والتهميش والتجاهل، كما تعرضت له الحضارة العربية الإسلامية في كل منجزاتها وخصوصاً في سؤالها الفلسفي، إذ وُجد مفكرون قديماً وحديثاً، سواء بين الغربيين أو بين أبناء حضارتنا، نفوا وجود سؤال فلسفي جديد، وشككوا بأهميته وأصالته، معتبرين أنه - أي السؤال الفلسفي - لم يكن سوى تكرار للفلسفة اليونانية والتصوف الهندي، لكن بأحرف عربية، كما يقول بعض المستشرقين، من مثل أرنتس رينان. وقد تأتي ذلك من أن التفكير الغربي يفخر عادة بأنه سليل الحضارة اليونانية التي يعدها المرحلة الوحيدة من التاريخ الإنساني التي كان فيها ولادة العقل الميسم الرئيس الذي يميزها من غيرها، وهناك من دفع بهذا الشعور إلى أقصاه ليتخذ موقفاً عرقياً أو شوفونياً عُبر عنه بأن الغرب هو حضارة عقل أنتجت السؤال الفلسفي، والشرق حضارة خيال لم تُبدع سوى الشعر أو البيان، وهو ما أطلق عليه في الأدبيات الاستشراقية الفلسفية "بالمركزية الأوربية" التي تجلت في أهم مقولاتها ألا وهي "المعجزة اليونانية".

بيد أننا نرى أن هذه النظرة ليس لها أية قيمة علمية أو تاريخية، لأن معيارها في الحكم على نفي أصالة السؤال الفلسفي الإسلامي هو عدم مطابقته للسؤال الفلسفي اليوناني، وفي هذه النقطة بالذات أي عدم المطابقة يمكن مناقشة أصحابها، فنقول إن سؤالنا الفلسفي لا يتطابق مع السؤال اليوناني فحسب، إنما لا يتطابق أيضاً مع أي سؤال فلسفي آخر في أي حضارة أخرى، لأن لكل حضارة حقيقية سؤالها الفلسفي الخاص، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن هذا التمايز والاختلاف الذي تجلّى في عدم المطابقة هو ما شكّل خصوصية السؤال الفلسفي للحضارة العربية الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى.

أخيراً، لا مرء في أن السؤال الفلسفي ابن عصره، يخضع لشروط العصر السياسية والاجتماعية والفكرية، لكنه يخرج على الزماني والمكاني ليتصل بما هو خالد أبدي، لأن المفكر وليد حضارته، شاهد على عصره، يتمثل ماضيه ويفهم حاضره ليتجاوز نحو الأبدى، حيث يستطيع أن يحول عصره إلى مفاهيم تنتظم جميعها في نسق يشكل تصوره للوجود، عبر تصور جديد يضيفه إلى السؤال الفلسفي يصبح دالاً عليه لا يعرف إلا به من مثل: واجب الوجود وممكن الوجود، ونظرية الحقيقتين، أو وحدة الشهود.

السؤال الفلسفي الأصيل في الحضارة العربية الإسلامية ليس ماضياً لا يعنينا إلا كمعلومات متكلسة في قوالب بيداغوجية، وأفكار قيلت في زمان ومكان معينين يتطلب منا حفظهما، لأن هذا يتناق مع الروح النقدية التي ترفض القبض على قراءة نهائية ومغلقة له، بل إن السؤال الفلسفي هو الحاضر الأبدى الذي لا يموت، بوصفه نصاً مفتوحاً يتجدد في كل محاولة نقدية مبدعة وخلاقة.

المصادر والمراجع:

- اختلف بعض الباحثون حول مسألة تسمية تلك الحضارة، بين عربية أو إسلامية، لكن الرأي الأشهر الذي نال استحساناً واسعاً بين أوساط المهتمين بتلك المشكلة، هو مصطلح الحضارة العربية الإسلامية، عربية لأنها ثقافتها كتبت باللغة العربية، وكان المبدأ الرئيس لها الإسلام لذلك هي حضارة إسلامية. للمزيد راجع: التفكير الفلسفي في الإسلام، محمد أبو ريان، دار المعرفة، الإسكندرية، 1990.
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، قدم لها محمود بن الشريف وعلق عليها عبد الحليم محمود، مكتبة أبي حنيفة، دمشق، 2000.
- انظر: يوسف سلامة، فينومينولوجيا التجربة الصوفية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الثالث والرابع، 2011.